CORE
Metadata, citation and similar papers at core.ac.uk
Provided by University of Kufa: UOK Journal Hosting Service

بين الجاهلية والإسلام

أ.د. عباس محمد رضا
كلية التربية ـ جامعة الكوفة

أعني بذلك التغير الذي طرأ على مقدمة القصيدة في شعر صدر الإسلام عما كانت عليه في الشعر الجاهلي.وأعني بالطيف(مقدمة الطيف) حصرا وسأهتم بها،لأنها قليلة قياسا بالمقدمات الأخرى(1)،ولأنها لم تنل اهتماما من الدارسين في شعر صدر الاسلام كبيرا وان ما كان من اشارات اليها(2) ،فإننا سنفصل القول فيها . ثم ان لنا وجهتنا في تفسيرها ، بوصف الطيف انتقالا من عالم الى آخر مختلف (3) في طبيعته وزمنه (داخليا) من حيث الواقع والخيال ومن حيث الحاضر والماضي . وهذا (الداخلي) متأثر بـ (الخارجي) الذي يتمثل في طبيعة ظروف العصرين فالشعرين ، معنى وروحا ونفسا

ولتحديد تطور مقدمة الطيف في شعر صدر الاسلام علينا ان نطل على حالها في الشعر الجاهلي للتعرف على اهم عناصرها وسماتها ، ومن ثم موازنتهما بما سيجد فيهما من تغير في شعر صدر الاسلام

ولكي لا نبخس حق الدراسات السابقة نشير الى دارسين اثنين اهتما بالطيف في ضمن اهتمامهما بالمقدمات الاخرى في الشعر الجاهلي،فأما اولهما فهو الدكتور حسين عطوان في كتابه(مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي) أرخ فيه للمقدمات وفي ضمنها مقدمة الطيف بالاستناد الى المصادر القديمة والدواوين الجاهلية ، فسمى شعراءها وذكر لهم أمثلة وشرحها شرحا لغويا وأدبيا(4)،واما الثاني فهو الدكتور محمود عبد الله الجادر في كتاب (اوس بن حجر ورواته الجاهليين) أحصى فيه أنواع المقدمات لدى أوس ورواته وفي ضمنها مقدمة الطيف بدقة ذاكرا عدد أبياتها وعناصرها الفنية لدى كل شاعر منهم،وعلل كثيرا من سماتها مثل:قلتها بصورة عامة أو خاصة ، وتدفقها لدى بعضهم واقتضابها لدى بعضهم الآخر،وموقعها الفني وفعاليتها من عدمها(5). فكأنا أن أعاننا على تلمس بعض الملامح من صورة مقدمة الطيف في العصر الجاهلي ، ثم كان لنا وقفتنا الخاصة لدى أمثلة مقدمة الطيف في الشعر الجاهلي وتأملها وتحليلها وتمحيصها وتفسيرها لاستجلاء سماتها وعناصرها الأخرى لاستكمال الملامح الباقية من صورة مقدمة الطيف في الشعر الجاهلي.وكنا خلال ذلك كله ننتقي ما يمكن أن يكون مجالا للموازنة بين مقدمة الطيف الجاهلية ومثيلتها في شعر صدر الإسلام . وذاك هو ديدن البحث ووكده وهدفه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد كانت مقدمات الطيف وصفا للطيف(6) لا كشفا ولا توظيفا وهو خيال المحبوبة يدهم خيال العاشق في المنام فيداعبه ويمنعه بعد أن قطع المفاوز واجتاز القفاز(7) .
زعم الشريف المرتضى أن عمرو بن قميئة أول من ابتكر هذا اللون من المقدمات(8) وأورد أبياتا له هي :

نأتك امامة الا سؤالا والا خيالا يوافي خيالا
توافي مع الليل مستوطنا وتأبى مع الصبح الا زيالا
خيال يخيّل لي نيلها ولو قدرت لم تخيّل نوالا(9)

تشير إلى أن المرأة الطيف تأتي مع الليل وتأبى مع الصبح إلا زيالا ، والطيف بالتحديد صورة المحبوبة لا غيرها ، وخيالها الذي يوافي من الشاعر خيالا ، ليس له من الواقع شيء ؛أي أن خيال المحبوبة وخيال الشاعر اشتركا في التخييل الذي هو التصوير الموهم 10) .
وتشير الأبيات أيضا إلى أن المحبوبة ضنينة في الواقع وضنينة في الأحلام أيضا . والإشارة إلى الأحلام صريحة في أبيات قيس بن الخطيم الذي عده أبو عبيد البكري من خلالها فاتحا في مجال الطيف إذ فتح للشعراء القول في طروق الخيال بأحسن عبارة وأحلى إشارة (11) ، والأبيات هي :

أنى سربت وكنت غير سروب وتقرب الاحـــلام غـير قريب
ما تمنعي يقضى فقد تؤتينه في النوم غير مصرد محسوب
كان المنى بلقائها فلقيتهـا فلهوت من لهو امرئ مكذوب(12)

وكان البكري يؤثر أبيات ابن الخطيم على أبيات ابن قميئة لأسباب نظن أن منها ذكر اهتداء الطيف إلى الشاعر البعيد على بعد المسافة ووعورة الطريق،وذكر المداعبة التي فيها الراحة والمتعة المؤقتتين.ونظن أن للتصريح في لفظ الأحلام ارتباطا بالأضغاث الباطلة التي هي نقيض الرؤيا الصادقة (13)،بدليل قول بشر بن أبي خازم :

أحقٌ ما رأيت أم احتلام أم الأهوال إذ صحبي نيام (14)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم هي تقرب البعيد على غير حقيقة ، أي لا قرب بغير الأحلام،ومعنى ذلك استعصاء القرب في الواقع. من هنا نظن أن (الطيف ـ الحلم) عوض عن الحرمان في الواقع.

وتدل لفظة (المنى) على معنى عدم التحقق ، فالمنى ليست (الأمل) الذي قد يتحقق(15)،ثم هناك اللهو المكذوب.ولا يتحقق شيء من اللقاء في الواقع بل إن المحبوبة تمنع ذلك وهي (يقظى).

ويأتي طيف الخيال في الظلام(16) والشاعر تعب يغط في المضاجع في نوم ثقيل بعد رحلة طويلة مضنية(17)، فالشاعر نائم وأصحابه بين نائم ومستيقظ،والمهم أنّ الشاعر نائم (ثابت) ثبوتا سلبيا ،والحلم سلبي من حيث عدم إمكانية تحققه في الواقع.والطيف نفسه سريع زمنه وصولا، قصيرة مدته بقاء (18). وهو يؤرق صاحبه إذ يوقظه من نومه ويدعه لهمومه (19). والحبيبة لا طاقة لها بالسير وتحمل المشاق،ولا تبعد الضرب في الأرض،ولا تتعرض لمخاطر الرحلة(20) . فالحركة والفعالية تكادان تنعدمان في الطيف على الرغم من تجشمه الزيارة.

ومقدمات الطيف قليلة في الشعر الجاهلي قياسا بالمقدمات الأخرى(21)،وليس لدى الفحول شيء منها(22).وفوق ذلك تنماز بالإيجاز فيها لدى عامة الشعراء ، بلا تفاصيل كثيرة إلا ما ندر .

وطيف الصعاليك ليس كطيف الآخرين؛لأنهم قليلو النوم(23)،فالطيف عندهم نادر جدا، ولعله من نمط آخر ، فقد ينتابهم في اليقظة،لا حلما في الليل،بدليل قول تأبط شرا:

يا عبد مالك من شوق وإيراق ومر طيف على الأهوال طراق (24)

وإذا صح مذهبنا في تفسير طيف الصعاليك نكون قد توصلنا إلى أن طيفهم يقترب من طيف الإسلاميين ويتشابه معه،كما في طيف حسان،وسيأتي حديث ذلك،وهو لب البحث،وذلك لجدية أمورهم وكبر همومهم ومشاغلهم .

وبإجراء موازنة بين مقدمات الطيف و(مقدمات الليل)،لوجود صلة بينهما من حيث أن الليل وعاؤهما،نجد إن مقدمات الطيف تختلف عن مقدمات الليل التي تدل على الأرق وهرب النوم والاستغراق في الهموم ومعاناة القلق والاسترسال مع أحاديث النفس.فالهموم الواقعية هي التي تطرق بدلا من طيف المحبوبة خيالا حلميا،ويكون الشعور بطول الليل وثقله،ويشكو الشعراء بطأه وما يقاسونه في دياجيه من أحزان وأشجان(25).

هنا تقترب خطوة أخرى بعد طيف الصعاليك ،أو تقترب مقدمات الليل من طيف الإسلاميين أيضا،لوجود قاسم مشترك بين هؤلاء وهؤلاء لعل ابسطها أن الليل

وعاء لهما،واعقدها الامتلاء بالهموم الفكرية الكبيرة مع اختلاف زاوية الهموم ووجهتها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد استمر شعراء الجاهلية في الإسلام على الافتتاح بـ (مقدمات الليل) في أغراض إسلامية(26)،حتى أنها تبدو مساوية للأرق الذي يسببه الطيف الإسلامي

وعن موقع الطيف الجاهلي في القصيدة أو في المقدمة بشكل أدق،نستطيع القول إنّ مقدمات الطيف ثبتت في الصدارة إلا ما ندر،ومن هذا النادر الطيف الذي جاء بعد طلل الحبيبة لدى المرقش (27) لكنه لا يغير من الأمر شيئا ،إذ إنّه يخصّ الحبيبة، ولا يختلف في سماته وعناصره عما في مقدمات الطيف التي هي في المطلع . وقد أشار الدارسون القدماء والمحدثون إلى أنّ الشعراء القدماء سنوا سنّة ثابتة في الطيف لم يزد عليها أحد شيئا ذا بال سواء في إطار العصر الجاهلي(28) الذي وصل فيه الأمر لدى بعضهم إلى أن ينظر إلى ما لدى غيره من لوحات الطيف(29) . أو في العصر العباسي حين قالوا بأنّ المحدثين عيال على المتقدمين فيها(30) .ومعنى هذا أن القدماء لم يلتفتوا إلى ما في شعر صدر الإسلام ، ونظن أنّ ذلك كان بسبب من قلتها أولا وظنهم بأنها نسخ مكررة مما كان منها في الجاهلية ثانيا.وكذا أمرهم معها في العصر الأموي(31). أما أمثلتها في العصر العباسي فقد انبرى الشريف المرتضى لتأليف كتاب في الطيف ذكر فيه أمثلته من شعر البحتري وأبي تمام والشريف الرضي ومن شعره هو . وأشار إلى بعض القدماء من شعراء العصر الجاهلي ومنهم:عمرو بن قميئة وقيس بن الخطيم(32) اللذان حللنا شعرهما واستنبطنا منه ما يثبت عناصر الطيف في الشعر الجاهلي وسماته في ما أنف من البحث.

والدكتور حسين عطوان هو الوحيد الذي درس مقدمات الطيف في صدر الإسلام وقرر أنّ الإسلاميين ((لم يضيفوا شيئا إلى معانيها وصورها إلا نادرا))(33)،وأضاف ((أن منهم من استغل النماذج الجاهلية وجعل يستوحي معانيها وصورها دون تحوير فيها او زيادة عليها))(34).وأحال في (الهامش) على ديوان الحطيأة بلا تعليق نقدي(35) . وقد فصل الدكتور محمود الجادر في الحديث عن طيف الحطيأة في ديوانه كله مشيرا إلى أنها على الرغم من كونها اشد تماسكا وأوفر حظا من العناية الفنية.وأنها وردت في مثال له خاتمة لافتتاح غزلي ، تتميز بأنها ترد مفعمة بالمعاني التقليدية، حتى بلغ به الأمر في مقدمة طيف يمدح في غرضها الذي بعدها الخليفة عمر بن الخطاب(رض) انه سلخ وزنها وقافيتها ومطلعها وبعض تراكيبها اللفظية والمعنوية وأدرجها في احد نماذجه(36)، ولكنه على الرغم من ذلك كله استطاع أن يمنح إحدى لوحاته حيوية فنية متميزة (37).ويهمنا من القولين أن الحطيأة أضاف شيئا ولكنه لم يكن بذي أهمية ، هذا في الجاهلية أما في الإسلام فأنه سلخ نموذجا لعمرو بن قميئة .

إلى هنا لم نجد تطورا أو تطويرا كبيرا،هذا من جهة،ومن جهة أخرى مثل الدكتور عطوان لفكرة عدم الإضافة في(متن) كتابه بشعر حسان ومر على بيتين له في الطيف وشرحهما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شرحا(38) تطابق وشرحه لمقدمات الطيف الجاهلية في كتابه مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي(39) والبيتان هما:

منع النوم بالعشـــاء الهموم وخيال اذا تغـور النـــجوم
من حبيب اضاف قلبك منه سقم فهو داخل مكتوم(40)

والذي تنبه إليه د. عطوان هو أن حسانا ((لا يفصل في وصف سرى الطيف إليه ، وما قطع من المسافات حتى ألم به ، بل يحافظ على ذكر الوقت الذي يزور فيه الطيف المحبين وهو آخر الليل ...))(41)،وأشاع الحكم بقوله:((وأما سائر المقومات فلم يعرض لها ، وهذا هو صنيعه في الكثرة المطلقة من مقدماته الإسلامية))(42) . على أننا سنرى أن حسانا لم يكن كذلك دائما

إلى هذا الحد يقف تحليل د. عطوان لمقدمات الطيف لدى حسان في صدر الإسلام . غير أن تأمل أطياف حسان في ديوانه عامة والبيتين خاصة يضعنا أمام الظن بأن د. عطوان فاته الالتفات إلى ما في أطياف حسان من انقلاب نوعي حصل فيها ،فتحول من (خيال واقعي) أو (واقع خيالي) إلى خيال رمزي نابض بالحياة يعبر عن هموم العصر ومشاغله الجديدتين.

وبعرض ما في هذين البيتين من سمات وعناصر على ما في مقدمات الطيف الجاهلية منهما،يمكن أن نستنتج ما يأتي:الهموم تمنع النوم،كذلك الخيال ، الخيال إذن ليس خيال الحبيبة كما كان شأنه في الجاهلية إذ يزور في المنام ، انه أوسع من ذلك مساحة وابعد مدى،انه الهموم تمنع النوم بالعشاء،أما الخيال فيمنع النوم حين(تغور النجوم) مطلع الصبح (من حبيب)؛الحبيب رمز الزائر ليس الحبيب نفسه،بل (سقم منه)،هذا السقم (داخل مكتوم) متعلق بالقلب لا يزول عنه،ومثل هذه المعاني يتطابق مع نموذج أخر لحسان سنأتي إليه قابلا هو :

فدع هذا ولكن من لطيف يؤرقني اذا ذهب العشاء
لشـــــعثاء التي قد يتمـــته فليس لقلبه منها شفاء(43)

الأمر إذن لا يتعلق بالخيال العاطفي كما كان في الجاهلية (امرأة ومتعة ومداعبة) بل يتعلق بالخيال العقلي والفكري والقلبي ، والعقل والقلب واحد ، كلاهما مصدر التفكير والإبداع (44) ، فهذا الضرب من الخيال يتغلغل إلى الداخل حيث الأعماق الصافية . وقد يعترضنا هنا أمر هو زمن الخيال الذي يمنع النوم

(إذا تغور النجوم) وكأنه الخيال الجاهلي نفسه،لكن القضية ليست كذلك ، فله تخريج ، وتخريجه ليس اعتباطا،فالهموم في العشاء،والخيال (إذا تغور النجوم) وكلا الوقتين إطار لاستغراق الخيال كل الليل بعد أن توحّدت الهموم والخيال؛(الهموم) معروفة وهي هموم (احد) أما (الخيال) فغير معروف إلى الآن.لنعد إلى المثال ونقرأه مرة أخرى (منع النوم بالعشاء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهموم) نجد أن الهموم المؤنث والخيال المذكر تقاسما الفعل المذكر ؛أي انه اسند إلى الخيال من باب تغليب المذكر على المؤنث ،بل تغليب الهم المستقبلي الكبير الذي يلوح في الأفق على الهموم الآتية الصغيرة.وكل ذلك إسلامي ويدور في ضمنه .

على حين أنّ الخيال في صدر الإسلام يتراوح هو أيضا بين التذكير والتأنيث ، غير أنّ ما كان منه مذكرا فهو من باب تغليب الإسلام المذكر على الجاهلية المؤنثة بكل ما في تذكير الأول وتأنيث الثانية من معان دقيقة.وما جاء منه مؤنثا يستلهم رمز المرأة لمدلولات(45) ايجابية خصيبة خصوبة الحياة الإسلامية الجديدة رؤية ثاقبة نابعة من صميم الواقع لا أحلام منام ، وسيأتي تفصيل ذلك.

الشطر الأول من البيت الأول في مثالنا الآنف (الميمية) شبيه بمقدمة الليل لدى الجاهليين(46) والإسلاميين(47) أيضا،ممن كانت لديهم قضايا كبيرة في المجتمع تخصّ ذاتهم ومجتمعهم.

والخيال متداخل (غير مستقل) مع مقدمة الليل،وهذا التدخل حوله من خيال عاطفي مستمتع إلى خيال علمي واقعي مهموم (48).

ولكي لا نبخس الدكتور عطوان حقه نقول انه أشار إلى أنّ حسانا لم يكثر من الطيف في الجاهلية والإسلام ، ثم انه في الإسلام يفتتح ميميته الآنفة ((التي قالها يوم (أحد) بالشكاية من الخطوب التي تطبق عليه عند المساء،ومن طيف صاحبته الذي يزوره بآخرة من الليل حين تغيب النجوم من كبد السماء فيؤرقه ويطرد النوم عنه))(49).هناك إذن قضية شاغلة هي (احد) وما أدراك ما أحد؟ القضية الأرق الذي يبدأ من المساء إلى الفجر، وكأن ثمة قضيتين ،الأولى: في المساء وهي الهموم والثانية:بآخرة من الليل وهي الحبيبة،نقول ما هكذا ينقسم الإنسان على نفسه في تجربة واحدة.فليس ثمة نوم ولا استيقاظ،بل ثمة سهر دائم وليل طويل.القضية تستغرق كل الليل ، إذ تستثار المواجع النفسية والفكرية لصفاء الروح والانكفاء عن ضوضاء الحياة اليومية في النهار وصخبها، وشتان ليل الجاهلية حيث الخفاء والستر(50)والظلام ،وليل الإسلام الذي أقلّ ما فيه أنه للعبادة الخالصة والتخطيط لنهار قادم(51) .

ليس هذا الأمر بغريب من حسان فهو نفسه استرعى انتباهنا في مسألة الزمن وتوحد الليل والنهار في قصيدة قالها من قبل في (بدر) يبدو أنها كانت بداية تطور الطيف وربما نضجه ، نجتزئ منها أبياتا تمثل كلها :

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقي الضجيع ببارد بسام
كالمسـك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيـح مـدام
نفج الحقيبة بوصها متنضّد بلهاء غير وشيكة الأقسام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

.....

أما النهار فلا أفتر ذكرها ... والليل توزعـــني بها أحلامي
أقسمت أنساها وأترك ذكرها ... حتى تغيـّب في الضريح عظام
يا من لعاذلة تلوم سفاهة ... ولقد عصيت إلى الـهوى لوّامي
بكرت إليّ بسحرة بعد الكرى ... وتقارب من حادث الأيام(52)

هذا طيف ليل فضلا عن النهار ، نعم انه في المنام ، لكنه الآن منام رؤيا ، لا أحلام أو احتلام كاذب ، وهذا ليس بقليل ، انه انتقالة جديدة . لم يرد في الشعر الجاهلي طيف في غير الليل وفي غير الأحلام حصرا.الطيف هنا في النهار ليس طيفا، بل أحلام يقظة يرتقي فيها الإنسان إلى شفافية سامية (53) . وهذا الحلم الليلي يؤكد واقعية الشغل النهاري ،والنهاري يؤكد كون الليلي ليس بأضغاث أحلام، بل أمال . الليل والنهار أحدهما يكمل الآخر.

كل مفردة ترمز بوضوح ، سنجتزئ أيضا بعض الروامز . ومنها الارتفاع والنضد شيئاً فوق شيء،والبلهاء:العفيفة الغفول عن الشر، وهي غير وشيكة الأقسام؛أي غير سريعة اليمين.فالشاعر إذا نام ليله تراءت له في الرؤيا . وإذا استيقظ نهاره كان هذا حاله معها فيه لا يفتر ذكرها . ثم هو ماذا يعني في قسمه ألا ينساها حتى يغيب في القبر . أليس هذا هو الإسلام بعينه؟! ،الذي جعل النهار معاشا والليل سباتا(54)،ولكن من غير جمود،إنّه سبات بين العبادة ومراجعة النفس والرؤيا الصادقة، فليس هذا الليل كليل الجاهلية (واقعية) في النهار و(خيالية) في الليل(55).

في مثال (طيف شعثاء)(56) لم يأتِ الطيف في المنام ليلا ، بل جاء والشاعر يقظان ، وهو نفسه يسعى إلى الطيف وقد أصابه الأرق بسبب منه ، فسلب عنه النوم . من هنا يكون الطيف أفكارا وتفكيرا(57) وأحلام يقظة ومهمات ومشاغل جماعية بعد أن كان الطيف في الجاهلية قريبا ذاتيا .

وبهذا نفسر قول الشاعر (**من لطيف يؤرقني أذا ذهب العشاء**) بأنه أراد بـ (من) الجماعة ليكونوا معه فيعينوه في محنته وهي مهمة فتح مكة وأعباؤه . وسبر غور الطيف الحساني هكذا يعيننا على الإمساك بظاهرة إسقاط عناصر طيفية جاهلية مثل صعوبة الوصول ووعورة الأرض وغير ذلك من (الماديات) التي كانت في اللوحة الجاهلية ، وإبقاء (**الروحيات**) عوضا عن ذلك.وسبب الإسقاط والإبقاء النوعيين هو من اجل التركيز على القضية الأساسية وتفصيلاتها الإسلامية من خلال الرموز الشعرية التي تناسب مقام الشعر ومقام القضية الكبرى المتمثلة في هذه القصيدة بالفتح الخطير من دون الأشياء الأخرى التي يعدها ثانوية.ولنا أن نلحظ بعد هذا وذاك أنّ الطيف في الجاهلية يأتي الشاعر فيدهمه على حين أنّ الشاعر في الإسلام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يذهب إليه بنفسه لأنه حقله الذي يرتاده،ثم كان الطيف في الجاهلية تعويضا عن حرمان الواقع،فأصبح في الإسلام واقعا وليس تعويضا، وكيف لا وحسان أوحي إليه الشعر وتلقى قوافيها من جو السماء(58) ؟ الم يكن هو ذاك الذي قال فيه الرسول ﷺ:((اللهم أيده بروح القدس))(59) ؟ فعلى هذا نستطيع الزعم أنّ الشعر الوحي أصبح بديلا من خيالات الجاهلية وغواياتها(60) .

ويمكن أن نستنبط من هذا الطيف ملامح تجلو تطوره في الإسلام ، إذ نلحظ أن الطيف جاء بعد مقدمة طللية طللها دارس ، بعد حياة مزدهرة انقضت ، ونعلم أنّ الطيف الجاهلي يجيء في المقدمة. أما هنا فقد جاء بعد المقدمة . ثم هناك تفاصيل أضيفت إلى الطيف ، منها أنّ الطيف لشعثاء ، ولشعثاء هذه خمرتها الخاصة،تعادل خواصها طعم التفاح . ومن هذه الخمر ينتقل إلى خمر أخرى لها قدسية ، لا ندري ما هي ؟ لكننا نستطيع أن نلحظ في طيف شعثاء انه يؤرق أيراق معاناة ، فلا يمنع ولا يلهي،وهو ملازم للشاعر،طويل العمر ليس قصيره وصولا أو بقاء وهو داخلي وليس بخارجي ، وقلبي غائر ، لا احتلام سطحي (فليس لقلبه منها شفاء).

كل مفردة من مفردات الطيف مرتبط بمفردة قبلها وبعدها ، أنها سلسلة متصلة الحلقات تؤدي إلى الغرض (**عدمنا خيلنا إن لم تروها**) بلا جسر انتقال،بل ان المقدمة ابتداء من الطيف بعد (دع) تبدو هي الغرض نفسه ، بل بؤرته المكثفة،على حين كان الطيف في الجاهلية مؤديا إلى الغزل أو النسيب أو التشبيب والغرض الرئيس ومعظمه فخر،حاله حال الطلل أحيانا كثيرة . أما هنا فهو نقيض الطلل . وإذا علمنا أنّ الطلل ينفتح على الماضي ـ وكذلك الطيف الجاهلي ـ(61) استنتجنا أنّ الطيف هنا هو الحاضر لا الماضي ، بل هو انقطاع عن الماضي ودعوة إلى ترك الطلل وترك الماضي للولوج إلى طيف الحاضر والمستقبل ، الذي هو الإسلام ومهماته.

وإذا اقتنعنا برمزية الطيف كما قررنا ابتداءً ، زادت قناعتنا بها هنا عندما نسب الشاعر الطيف إلى شعثاء (رمزا)،وإن رد هذا بأن شعثاء زوجته حقا وحقيقة(62)

كان لنا على الرد رد هو أنّ الزوجة رمز لتجديد الحياة ، والحياة الجديدة هنا هي الإسلام

يشير الفحص إلى أنّ الطيف كان افتتاحات لغرض الفخر وما يلزمه من حماسة وتهديد ووعيد ، سواء أكان هذا الفخر فرديا أم قبليا كما في الجاهلية(63) أم فرديا وجماعيا إسلاميا كما في صدر الإسلام(64).

ولا نكاد نرحل عن طيف حسان إلا ونحن نتلمس أن أطيافه توزعت على افتتاح أغراض حربية هي بدر واحد وفتح مكة كان الفخر الجماعي الإسلامي والذاتي الإسلامي فيها سداها ولحمتها.

ويبدو لي من خلال النماذج المدروسُ وغير المدروسة هنا أن خيال الحبيبة كان باعثا على نشوة مؤقتة شبيهة بالتي تثيرها الخمر الجاهلية ، وهي خمر تبعث على التهور(65) ثم انه ـ الخيال ـ كان باعثا على القول الشعري ، فكان الشاعر يفخر بالزيارة من جهة ويأسف لكونها أحلاما باطلة، وكلا الأمرين يحملانه على الإجادة في الغرض الرئيس، حتى إذا كان الإسلام لم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يدع الشاعر المسلم مقدمة الطيف،بل تحوّل بها من وجهتها السابقة إلى الأغراض الإسلامية الجديدة، وبذلك كان للرموز الطيفية مدلولات جديدة تشع على الغرض،وربما استطيع أن اذهب ابعد من ذلك فأقول : إذا كان الطيف الجاهلي شبيها بالخمر الجاهلية فان الطيف الإسلامي شبيه بخمر الإسلام والإيمان ، يدعو إلى التفكر والتصميم والعمل الخلاق الدائم . وكيف لا يصح مثل هذا التأويل وقد رأى كعب بن زهير من قبل أن يسلم ذلك في قوله:

شربت مع المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا (66)

وبعد أن انتهى الدكتور عطوان من الكلام على (مقدمة وصف الطيف) ـ كما اسماها ـ لدى حسان،والحطيأة في صدر الإسلام ولم يجدِ لدى الأخير أثرا إسلاميا ، ختم مبحثه بالكلام على مقدمات تميم بن مقبل ، ووصفه بأنه ((أهم من عني من الشعراء المخضرمين بوصف الطيف في مقدمات قصائده الإسلامية ، واشد من حرص منهم على التمسك بعناصره التقليدية))(67)،وجاء بمثالين من شعره ، أولهما :

طاف الخيال بنا ركبا يمانيــنا ودون ليلى عواد لو تعدينا
منهن معروف آيات الكتاب وقد تعتاد تكذب ليلى ما تمنـينا
لم تسر ليلى ولم تطرق بحاجتها من أهل ريمان إلا حاجة فينا
من سرو حمير أبوال البغــال به أنى تسديت وهنا ذلك البينا(68)

وأشار إلى وجود المعاني الجاهلية القديمة في هذا المثال إلى جانب التجديد المتمثل في المشاغل التي صرفته عن صاحبته ((وأشهرها الإسلام الذي يحرم الفواحش ما بطن منها وما ظهر))(69).

وبغية فهم رموز طيف ابن مقبل يلزمنا التعرف على مراحل حياته؛لأنها ستكشف لنا هذا الجانب وذاك من أطيافه، فهو في مطلع الإسلام حنّ إلى أيام الجاهلية حتى أنه بكى الجاهلية في الإسلام(70).

ونظنه يعني بالخيال في المثال الآنف خيال الجاهلية الكذوب ، وقد تبين للجماعة الإسلامية بعد حين ـ وهو معهم ومنهم ـ ان الجاهلية محض خيال تعيقهم عنه وتشغلهم مشاغل كثيرة منها حفظ الآيات القرآنية وتدبرها،وذلك ما أمر به القرآن الكريم(71).وكلما مضوا قدما في ذلك انكشف كذب ليلى أوضح في (ما تمنينا).

ثم يقرر انه لم تسر ليلى ولم تطرق بحاجتها إلا حاجة فينا ، ولعل هذه الحاجة موازنة بين حياتين متناقضتين . ثم يؤكد أن الجاهلية كلها كذب في كذب وسراب في سراب . وأمر ابن مقبل هنا كأمر كعب بن زهير مع (سعاد) التي لم تكن (مواعيدها إلا الأباطيل)(72) من زاوية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بطلان الجاهلية. ثم ان ما أتى ابن مقبل كان في اليقظة لا في النوم بدليل (ركبا يمانينا) وفي (الركب) إشارة إلى رحلة الحياة الجديدة

وقد المح الدكتور عطوان إلى الإسلام إلماحا،ووصفه بأنه يحرم الفواحش(73) جملة وتفصيلا. ولم نجد لهذا الوصف موضعا في السياق لان الصاحبة لم تكن امرأة بعينها أصلا بل رمزا إلى الجاهلية،ثم ان الجاهلية لم تقرن كلها بالفحش،وان كان منه شيء فيها ، فان المجال هذا لا يتسع لذلك ولا يوائمه(74) .

أما المثال الثاني من شعر ابن مقبل فكان:

ألا طرقتنا بالمدينة بعدما طلى الليل أذناب النجاد فاظلما
تخطت إلينا الدور والسوق كلها ومن كان فيها من فصيح وأعجما
عشية وافى من قريش وعامر ومن غطفان مأتم رزن مأتما
يمحن بإطراف الذيول عشية كما بهر الوعث الهجان المزنما
كان السرى أهدت لنا بعد ما ونى من الليل سمار الدجاج فنوما
ربيبة حر دافعت في حقوقه رخاخ الثرى والاقحوان المديّما(75)

وقد شرح معاني أبياته شرحا لغويا ، ثم قال بأن الشاعر لاءم بين العناصر الموروثة والمستحدثة ، وحدد عناصر كل ، وأشار إلى الجديد فيها من دون أن يبين مغزاها ويسبر غورها . ومن حيث انتهى أبدأ بالقول بأن هذا المثال له شأن أخر ، إذ هو الإسلام بعينه ، والطيف هنا واقعي لأنه أصبح الآن الشغل الشاغل بعد أن كان يعني به (الجاهلية) والإسلام يشغله عنها،في المثال السابق

ابن مقبل يتقدم إذن خطوة بعد أخرى نحو الإسلام ليؤمن به أكثر مما كان عليه.وكانت أولى خطواته تبدأ من حنينه إلى الجاهلية ووشوكه على الامتناع عن الإسلام ورفضه،ثم كانت الخطوة اللاحقة في إقباله على الإسلام وقناعته بأسباب وجوده. فإذا بالطيف الجاهلي يدهمه بين الحين والحين لكن الإسلام يتربص به ليشغله عنه ويصرف عنه الوهم

والخطوة المثلى تتمثل في أن الإسلام أصبح واقعه وطيفه ورمزه،وأصبح الطيف واقعه ورمزه. من هنا احتمل التفسير الرمزي الدال على الإسلام وشؤونه . ومن لمحات رمزية (الطيف،والخيال، والمرأة، والرمز، والإسلام) كونها – المرأة بخيالها ـ طرقت بالمدينة ، وما أدرانا ما المدينة بعدما هاجر أليها الرسول ﷺ ؟ المدينة تلك الحاضرة التي استتب أمر الإسلام فيها والمنفتحة على المستقبل ، والمشيرة إلى الماضي الذي بين لنا حالته.

نلحظ ذلك في زمنية (بعدما) التي تدل على أن الجاهلية غطت الأرض زمنا واستولى عليها ، وما زالت تطارد المسامين حتى حملتهم على الهجرة . إنّ الليل الجاهلي (اظلما)؛ أي جاوز الحد في الشرك وسلوكه المضاد تجاه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين

وإذ تشير مقدمة القصيدة إلى الماضي تنفتح ابتداء على ساحة الحاضر وافق المستقبل ، مكانا ومادة وفكرة . فالمكان هو (الدور والسوق كلها) ونظنه ينطلق من دلالة المدينة إلى المدينة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي ينشدها الإسلام . والمادة من (فصيح وأعجما) إشارة إلى العرب والأقوام الأخرى . والفكرة تتلقف ضمنا في أن الإسلام دين الحضارة الإنسانية،وهو للإنسانية جمعاء

ونلمس بوضوح إمارات الفرح والاطمئنان وعناصر مشرقة من التبختر واللين والبياض وصياح الديك والحرية وطيب المنبت وسقيا المطر والنتاج المتمثل في زهر الأقحوان . لعل كل ذلك من اسقاطات ابن مقبل ، أي خوالج نفسه التي عادلها بهذه العناصر ، وكلها تشير إلى هيمنة الإسلام وقبول ابن مقبل لذلك خوفا او طمعا . وربما لم يكن ابن مقبل ممن شاركوا في التجربة الإسلامية بفاعلية وهاجروا من اجلها ، لكنه ـ في اغلب الظن ـ تقمص التجربة وعايشها أحسن ما يكون التقمص وتكون المعايشة للتجربة ، ولو من بعيد . وقد أحسن الدكتور عطوان في خاتمة بحثه عندما قال:((تفوق ابن مقبل على غيره من الشعراء المخضرمين في وصف الطيف في مقدمات قصائده الإسلامية ، كما تفوق على كثير من الشعراء الجاهلين))(76) .

ولعل هذا التفوق كان بعد أن خبر الطيف الجاهلي ، ثم حوّله في الإسلام إلى طيف إسلامي، شيء مقابل شيء الإطار نفسه،لكن الجوهر غيره تماما.

وإذ ننتهي من متابعة تطور مقدمة الطيف من الجاهلية إلى الإسلام نخلص إلى أن مقدمة الطيف لم تتطور في حجمها بمعنى ان كل شعراء صدر الإسلام أو

جلّهم ابتدأوا قصائدهم بها، بل كان التطور في بعض العناصر الجديدة التي أضيفت إليها ، وكان في تغير سماتها تغيرا كبيرا أعدها لأن تمتلئ بالرمز وتكون كشفا ـ لا وصفا ـ يصب في مجرى توظيفها توظيفا يخدم الغرض الإسلامي، ولا نهوض في الخيال اذا قررنا انها ـ مقدمات الطيف ـ سالت حتى سقت لوحة الغرض بعد ان اكتسبت حرارتها منها ، فأصبحت بذلك مقدمة ملتزمة وأن كانت قليلة وقصيرة .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش والمصادر

(1) ظ: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،د. حسين عطوان، مصر 1970 ص106 + شعر اوس بن حجر ورواته الجاهلين،دراسة تحليلية د. محمود عبد الله الجادر،بغداد،1979م،ص258.

(2) نعني بذلك مبحث الدكتور حسين عطوان (مقدمة وصف الطيف) ص 61- 65 من كتابه (مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام ، ط1 ،بيروت،1987م).

(3) المقصود عالم الرائي للطيف ، اذ الحلم أناني ، والذي يضطلع بدور مهم فيه هو الحالم نفسه . ظ:علم ما وراء النفس، فرويد،ترجمة: جورج طرابيشي،ط1،بيروت،1979م،ص96.

(4) ظ: الصفحات 104 وبعدها ، 165 وبعدها .

(5) ظ: الصفحات 255وبعدها ، لدى اوس وكعب وزهير والحطيأة

(6) ظ :حماسة ابن الشجري،طبعة الهند(1345)، ص 175+ مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص104 و165+ شعر اوس بن حجر،ص307 + مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص 61.

(7) ظ: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص 106.

(8) ظ: طيف الخيال،الشريف المرتضى،تح: حسن كامل الصيرفي،طبعة دار احياء الكتب العربية،1962م،ص99.

(9) ديوان عمرو بن قميئة،تح: حسن كامل الصيرفي،مصر،1965م، ص106.

(10) ظ: قول الخليل بن احمد الفراهيدي في الشعراء انهم ((يصورون الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل))، في منهاج البلغاء، حازم القرطاجني،تح: الخوجة،تونس،1966م،ص 143-144

(11) ظ :سمط اللالي،البكري،تح:عبد العزيز الميمني،مصر،1936م،ص524.

(12) ديوان قيس بن الخطيم،تح: ناصر الدين الاسد، مصر،1962م،ص15.

(13) ظ: في القران الكريم رؤيا يوسف A ،سورة يوسف:21، 5 ، 4 ،ورؤيا ابراهيم A ،الصافات: 102 ،105، ورؤيا الرسول محمد ﷺ ، الفتح: 27. وعن أضغاث الأحلام سورة يوسف: 44 + مختار الصحاح (ص غ ث) + طوق الحمامة،ابن حزم،تح:الفاسي، تونس،1985م،ص69.

(14) ديوان بشر بن ابي خازم، تح: د. عزت حسن،دمشق،1960م، ق41.

(15) ظ: مختار الصحاح ، الرازي ، بيروت،1981م،مادة (أ م ل) و(م ن ا).

(16) ظ :ديوان عمرو بن قميئة،ص106 + ديوان قيس بن الخطيم،ص 15.

(17) ظ :مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص107.

(18) ظ:المفضلية،ص104 ،في المفضليات،تح: شاكر وهارون،ط3،مصر،1964م + طيف الخيال،ص16.

(19) ظ المفضلية،ص55 ، لوحة الطيف بعد الطلل تشتمل على معظم العناصر الأساسية التي اشرنا إليها.

(20) ظ :مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص107 .

(21) أود الإشارة إلى أنها توزعت على عدد كبير من الشعراء ، ولكن نسبتها لديهم ولدى غيرهم ضئيلة جدا قياساً بالمقدمات الأخرى وهي الطللية والغزلية والظعنية،وحتى قياساً بالمقدمات الفرعية مثل بكاء الشباب ومقدمة الفروسية.

(22) ظ: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص168 + شعر اوس بن حجر،ص 258،الهامش(2).

(23) ظ: الامالي،القالي، طبعة دار الكتب المصرية،ط 2،1926م، ج2 ص119 + العصر الجاهلي،شوقي ضيف،ط8، مصر،1960م،ص79 .

(24) ظ: المفضلية الأولى.

(25) ظ :ديوان النابغة الذبياني،تح :محمد أبي الفضل،ط 2،مصر،1985م،ص40 ، 67 ، 72 + الاصمعية(55) من الاصمعيات للاصمعي،تح :هارون وشاكر،ط2،مصر،1964م.

(26) ظ :شرح ديوان حسان،ضبط البرقوقي،بيروت، 1980م،ص153 ، 235 ، 416 + ديوان كعب بن مالك، د.سامي مكي العاني ،بغداد،1966م،ص188 ، 260 .

(27) ظ: المفضليات 55- 57 + ديوان الحطيأة، تح:نعمان امين طه،مصر،1958م،ص362 .

(28) ظ: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص 107 .

(29) ظ :طيف الخيال،ص 99- 100 + مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص105 ، 107 .

(30) ظ :ديوان المعاني،العسكري،طبعة مكتبة القدسي،القاهرة، 1352هـ:276/1 + نهاية الأرب،النويري، ط2،مصر،1929م: 237/2+ للبحتري صورة زوال الطيف بزوال الليل وقدوم الصباح كما لدى عمرو بن قميئة في الجاهلية ، حتى ان البحتري راح يتمنى لو يستمر الليل لكي تستمر متعته بالطيف.ظ :ديوانه،تح: الصبر في مصر،1977م، ط3: 1004/2 .

(31) وقد درسها في العصرين د. حسين عطوان.

(32) ظ:طيف الخيال،المرتضى،تح د. ابو ناجي،طبعة دار التربية،المدينة المنورة، ص26 – 27 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(33) مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص61.
(34) م.ن.
(35) م.ن.
(36) يعني : نأتك أمامة الا سؤالا.
(37) ظ :شعر اوس بن حجر،ص322 + مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص62- 63.
(38) ظ: مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص 61- 62 .
(39) ظ: على سبيل المثال ، الصفحات 104 – 107 و165 – 168 .
(40) شرح ديوانه،ص432 ، وشبيهتها مقدمة ليل،ص 416 .
(41) مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص61.
(42) م.ن،ص62.
(43) شرح ديوانه،ص58- 59 .
(44) ظ :الحب بين القلب والدماغ،د.نوري جعفر، بغداد،1985م، ص77 .
(45) ظ :مدلولات رموز المرأة في مقدمة القصيدة العربية قبل الإسلام،د. محمود عبد الله الجادر (بحث) فرزه من مجلة المجمع العلمي العراقي ج4 من المجلد 31 ،بغداد – 1980م، ص7 مثلا + رمز المرأة في ادب ايام العرب، د. عادل البياتي (بحث) مجلة افاق عربية 12،بغداد،1977م.
(46) ظ: متن الهامش 25 .
(47) ظ: متن الهامش 26.
(48) ظ :مثل ذلك ، شرح ديوان حسان،ص416. والشعر لابن الزبعري في اسلامه .
(49) مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص61 .
(50) سورة الشمس:1-4 ، الليل: 1-2 ، الضحى: 1-2 + ظ: الغائب (المقدمة)،عبد الفتاح كيليطو،دار توبقال للنشر،المغرب،ط1،1987م، ص7-14 .
(51) سورة المزمل:1-6 + يس:37.
(52) شرح ديوان حسان،ص 418.
(53) ظ: المكان في القصص القرآني،دراسة فنية،(جاسم شاهين)،رسالة ماجستير،آداب القادسية،2001م،ص55 .
(54) النبأ:10- 11.
(55) سورة النمل: 86 ، القصص :71- 73.
(56) ظ :شرح ديوان حسان،ص 58- 59 .
(57) ظ :مقدمة همزية حسان من الجاهلية الى الاسلام (بحث)، د. عباس محمد رضا،سينشر في مجلة ديالى.وأدق من عبر عنه ابو تمام (بالفكر زرت طيف الخيال) .ظ: طيف الخيال،تح: ابو ناجي، ص28 و29 .
(58) ظ :شرح ديوان حسان،ص391 .
(59) ظ :العصر الاسلامي،شوقي طيف،ط 8،مصر، 1963 ص77 .
(60) ظ: سورة الشعراء:221- 227 .
(61) ظ :شعر اوس بن حجر، 256.
(62) شرح ديوان حسان،ص 193،(الهامش) + 423 (الهامش) ، وفي الموضعين مشتركة بين الزوجة والحبيبة.
(63) ظ :مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،ص165 مثلا.
(64) ظ :مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص 61 وبعدها . وربما تحول الى اغراض اخرى في العصر العباسي ، كما لدى البحتري اذ أفتتح بها معظم مدائحه . ظ: طيف الخيال في شعر البحتري،د. كامل عبد ربه، مجلة القادسية ،مج 3،ع2،1998م،ص69 .
(65) ظ :الافتتاح الخمري لمعلقة عمرو بن كلثوم،اعادة قراءة (بحث)،د. عباس محمد رضا مجلة ديالى،مجلة1،ع10، ،2001م.
(66) ظ :العصر الاسلامي، شوقي ضيف،ص84 .
(67) مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،64.
(68) ديوان ابن مقبل،تح :عزت حسن،دمشق ،1962م، ص315.
(69) مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص64.
(70) ظ: المحبر،ابن حبيب،تح :د. ايلزة،ط :حيدر آياد الدكن،الهند، ص325.
(71) ظ :سورة النساء: 82 مثلا.
(72) شرح ديوانه (كعب بن زهير)، طبعة دار الكتب،مصر، 1950م، ص6- 25 + قصيدة كعب بن زهير الموسومة بالبردة (بحث) د. عناد غزوان ، مجلة الطليعة الادبية ،ع5،1977م، ص7و9 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(73) مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص64.
(74) لعله تأثر الشرح اللغوي لديوانه الذي حققه د. عزت حسن ، ظ ص315 .
(75) ديوانه،ص282 .
(76) مقدمة القصيدة العربية في صدر الاسلام،ص65.

Abstract

The research followed the development of vision introduction Pre-Islam to Islam where it was adscription of the beloved vision that the lover dreamed of:

To say frankly that it is a dream means it is not a true vision، and that it made the for so near it subtitled the deprivation of reality.

The research concludes that this introduction had not developed in size، i.e. all the poets of the beginning of Islam era started their poems with it، and that the development was of some new elements that had been added to it for a qualitative reversal from(a real imagination) to(an imaginal reality) which became a living symbol that represent the period and the Moslems' cares. The changes of its characteristics were so important that it prepared it to be a discovery that serre the Islamic purpose، so it became a committed poem though it was short and not so popular in the Islamic poem. It almost came to be introduction of the mass Islamic pride which includes zeal، threating and menace.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com